هاكلبري فن

تحليل نقدي

كاتب المقال / وليد كمال عبد الباسط محمود

" إن كل الأدب الأمريكي المعاصر ينبع من هاكلبري فن "

{ أرنست همنجواي }[1]

مقدمة لابد منها :-

كتب صمويل لانجهورن كليمنس (1835 – 1910) والذي أطلق على نفسه " مارك توين "[2] مغامرات" هاكلبري فن "1884 ، وهي تالية لرواية " مغامرات توم سوير " 1876 ، وهى رواية تحكى عن صبى طائش ، برئ ، شريد ، يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً ، وقد طاف ببعض الولايات الأمريكية وأقاليمها وتخومها عبر نهر المسيسبي وتعلم ما صادفه فيها من تجارب أدركها من طبائع البشر ، وما اكتشف من حقائق عن الحياة والوجود ، وساعده على ذلك أنه بلا أسرة ولا وطن ولا دين ولا مهنة مصاحباً معه عبداً زنجياً هارب يدعى " جيم " فوق طوف خشبي " عائمة " ، فهي قصة تروى التقاء البراءة بالتجربة

و" هاكلبري فن" فتى يميل إلى السلبية – قد يرجع هذا لحداثة سنه – ولكنه يملك روحاً وثابة ، وعقلاً متوهجاً ، وضميراً يقظاً، وحساً طفولياً ، وقلباً فياضاً ، فيه شجاعة وفيه رجولة ، وهو متوحد منطلق ، لا يرضى عن مفهوم الاحترام وبخاصة ما تمثله امرأة ارستقراطية " الأرملة دوجلاس " تكثر من الاستشهاد بالكتاب المقدس ، وكذلك أختها " الآنسة واطسن " التي تتبع أساليب تتسم بالصرامة والتزمت لا تستقيم وطبيعته ، ولا تتمشى مع مداركه ، فيضيق بها ذرعاً ، ومن ثم يعلن عدم تكيفه مع هذا المجتمع ، فكان من السهل عليه الهرب من تلك القيود الاجتماعية ، ولكنه وقع بين مخالب أبيه المطبوع على الشر ، والذي يلاحقه بالسباب ويعامله بقسوة ووحشية ، بل يرغمه على ارتكاب سلوكيات تحمل في مضمونها الإجرام ،

---

[1]. موجز تاريخ الأدب الأمريكي / بيتر هاى / ت / هيثم على حجازي . منشورات وزارة الثقافة السورية / دمشق 1990 ص 95

[2] . روائع الأدب الأمريكي / تحرير نبيل الشريف وآخرون / مركز الكتب الأردني / الأردن / 1995 ص 467

ومن ثم يهرب من هذا وذاك ، ويعود لحياة الدعة والانطلاق بنفسه المطبوعة على التحرر ، والتوق إلى الطبيعة والفطرة والبراءة ، وروحه المجبولة على عيشة البهيمية ، متخذاً من نهر المسيسيبى سبيلاً للاكتشاف والمعرفة .

الحبكة :

تقول د/ عفاف عبد المعطى : " تقتضى كل حكاية خاضعة لمروي محدد حبكة يقوم عليها ترتيب محدد للأحداث والأفعال وفق منطق تتابع تلك الأفعال والأحداث الذي كثيراً ما يقوم على عنصر السببية ، والذي ينتج خاصةً عن ظهور أحداث جديدة في طبيعتها أو نوعيتها أو بروز شخصيات جديدة تؤثر بصفة واضحة في مجرى الأحداث ، كما ينتج أيضاً عن تحوير طارئ للعلاقات السائدة بين أبرز الشخصيات القائمة في الحكاية ، فكل حبكة تبدأ من نقطة معينة كي تصل في آخر القصة إلى نقطة أخيرة " [1].

وعند تحليلنا المتواضع لتلك الرواية نجد أن هذه المغامرة تشتمل على 43 فصلاً ، وكل فصل يمثل حكاية تقع من خلالها موضوعات تروى ، ومواقف تقع ، ومناظر توصف ، أو قصص تحكى ، أو شخصيات تتحرك ، تحدث تلك الأحداث وتسير وفق تصور صاحبها ، وتقفز بنا من مشهد إلى مشهد بتسلسل وترتيب ، فبداية فصل أو حدث يتتبعه فصل أو حدث أخر بحكاية جديدة له أو بعده ، لها موضوعاتها وشخصياتها ومناظرها ، حتى نخلص في النهاية إلى استخراج الغرض الذي يود الكاتب إظهاره من درس أخلاقي أو عبرة .

و " مارك توين " يعتبر أولاً مصوراً فوتوغرافياً حذقاً ، يحمل آلة تصوير في يديه ليصور كل المشاهد والمناظر والأحداث التي تقع عليها عينه ، نقية ، مجردة ، دون الحاجة إلى تفنيدها أو التعليق عليها أو إرجاعها لمنطق يرتضيه العقل . وثانياً لعب الخيال

[1]. السرد بين الرواية المصرية والأمريكية (دراسة في واقعية القاع) د/ عفاف عبد المعطى – رؤية للنشر والتوزيع - 2007 ص 291

دوراً رئيسياً في إحداث التشويق والرغبة في استثارة القارئ ، لذا تعتبر الحبكة هنا بسيطة ، بل غاية في البســـاطة ، أي أنهـــا ليست بالمحكمة ، أو المعقدة ، أو المفككة .

السرد :

ويعنى به الاسترسال أو الاستطراد في القصة وهى بعـــبارة أخرى " النسيج الذي تتنوع خيوطه لينتج لنا في النهاية نصاً إبداعياً متماسكاً ، وهناك أشكال تتعلق بطبيعة السرد في الرواية التقليدية ، وذلك أن الراوي عامةً يحافظ على علاقتـــه بالقـــارئ في مستوى سردي يستمر عادة في التتابع الحدثي " [1]وهاكلبري فن مثال على الرواية التقليدية .

ويقول " مارك توين " عن طريقته أو أسلوبه في السرد : " إن طريقة سرد الحكاية الفكهة أو الساخرة ، أهم من أحـــداثها ، لاسيما حين يتظاهر الراوية بالجدية التامة في أثناء سرده للمفارقات أو الأحداث المثيرة للضحك ، وكثيراً ما يستطرد الراويـــة ويتحدث عن أمور متشعبة تبتعد كثيراً عن خيط الأحداث ، ثم تنتهي حكايته بجملة أو تعليق مقتضب "[2]، والأمثلة التي تؤكد على هذا القول كثيرة ، ولكننا نتقيد بمساحة البحث .

ولقد طبق مارك توين ما يقول في تلك الرواية في الانتقال من حكاية إلى حكاية أو حدث إلى آخر كيفمـــا ترويـــه هـــذه الشخصية أو تلك مثل هاكلبري فن نفسه – الراوي الرئيسي – وتوم سوير ، وجيم ، والملك والدوق ، من حكايات تتعلق بماضيهم أو بأفعالهم ، والسبل التي أمعنوا بل وكابدوا في سرد رواياتهم ، فنجد الميل إلى المبالغة والخيال ، الكذب والخديعة ، المراوغة والمداهنة ، المداراة والمواربة ، ترويها بجدية وتمكن واقتدار وكأنها حقائق مؤكدة إلا أنها لطيفة أو مضحكة وتبعث على السخرية لكونها غير قابلة للصدق ، إلا أن ما يهمنا هنا جمال التصوير ، ودقة الوصف ، وبراعة السرد ، فتأتى لنا معروضـــة

---

[1]. السرد بين الرواية المصرية والأمريكية " دراسة في واقعية القاع " د/ عفاف عبد المعطى – رؤية للنشر والتوزيع – 2007 ص 312

[2]. روائع الأدب الأمريكي – تحرير نبيل الشريف وآخرون – مركز الكتب الأردني – الأردن – 1995 س 470

بسلاسة وخفة ومهارة ، وتأخذنا إلى عوالم فياضة نستكشف فيها مشاهد من الطبيعة ، ونماذج بشرية عامرة بالمتناقضات ، إلا أنها محببة ولطيفة ، وتبعث على الضحك لطرافتها وعفويتها .

ومن إسهامات مارك توين الكثيرة أنه بعث الحياة في أسلوب سرد الحكايات الشعبية في التخوم الأمريكية بسبب الأحـــداث الواقعية العفوية واللغة العامية غير المتكلفة [1].

اللغة الدارجة Colloquial Language:- لعل أهم سمات الكتابة الواقعية في الأدب الأمريكـــي لجـــوء الكتاب – الروائيين منهم بخاصة – إلى استعمال اللغة الإنجليزية الدارجة بل حتى الإنجليزية الهابطة أو (الســـوقية Slang) أحياناً و لم يقتصر استعمال العامية الدراجة على بعض المفردات القليلة التي قد ترد هنا وهناك في ثنايا المتن الأدبي ، بل تعداه إلى الحوار الذي كثيراً ما استقاه الأدباء من لغة الحياة اليومية ، وكان من أهم الأسباب التي حدت بالواقعيين إلى اعتمـــاد اللغـــة الدراجة أن بعض الكتاب في وضع شخصياته في الأطر المرسومة وتقربها من أرض الواقع تيسيراً لتقبلهم وتواصل القراء معهم . ونأتي إلى" مارك توين " الذي كان يكثر من استعمال العامية الدارجة في رواياته إلى الحد الذي غدت فيه سمة مميزة لأســـلوبه الأدبي ، لا سيما روايتيه " توم سوير " و " هاكلبري فن " غير مبال بما أثارته من امتعاض بعض معاصريه (وليم دين هاولز) الذين كانوا يدعونه إلى تهذيب أسلوبه وتشذيب مفرداته التي قد تستفز بعض الحساسيات أو الهواجس لدى القراء "[2] وكـــان يمعن في استخدام الألفاظ البذيئة والكلمات المنحطة وتعبيرات ربما قد تتعلق بالكتاب المقدس لإضفاء روح السخرية والمداعبة ، كذلك لغة تخاطب سوقية يتداولها عامة الناس أو ما يطلق عليهم الدهماء ، بل أسفل طبقة من طبقاتها مثل أصحاب المهن المحقرة كعمال المناجم ومزارعي الحقول وأيضاً المنحرفين والمشردين والبلطجية والمحتالين والمهرجين والفرق الجوالـــة وغيرهـــم مـــن المسحوقين ، وحواراتهم السائدة التي تدور في حياتهم اليومية .

---

[1]. روائع الأدب الأمريكي – تحرير نبيل الشريف وآخرون – مركز الكتب الأردني – الأردن – 1995 ص 469
[2]. روائع الأدب الأمريكي - تحرير نبيل شريف وآخرون – مركز الكتب الأردني – الأردن – 1995 ص 425

ومع الأسف لم يتح لنا النص المترجم الواقع بين يدينا التعرف بتلك اللغة ومفرداتها وتعبيراتها على نحو ما ساقه الأستاذ المترجم في مقدمة هذه الرواية ، وتبريره باستعماله اللغة العربية الفصحى وتفضيلها على اللغة العربية الدارجة ، مما جعلنا نشعر بالتقصير في إظهار تلك المفردات ، واكتفينا في بحثنا هذا فيما استقيناه من كتابات نقدية ومصادر تتحدث في هذا الشأن .

" وقد بقى مارك توين عاشقاً للكلمة المؤثرة وسيدها ، وارتقى بفن استعمال اللغة الدارجة إلى الحد الذي جعل ظهور المفردات العامة أو الهابطة أمراً متوقعاً ، بل مقبولاً في اللغة الأدبية "[1] .

إلى أي مذهب أدبي تنتمي له مغامرات هاكلبري فن :-

استطاع مارك توين أن يمزج بين مذهبي الواقعية والطبيعية في تلك الرواية – دون قصد – حيث اختلطت أنماط الحياة من عناصر الطبيعة والنماذج البشرية من خلال صور متتالية واقعية يرويها ويصفها لنا في المجتمع الأمريكي الغرب أوسطى ، أبانها (توين) وثبتها ، وكان صادقاً في تصويرها وتدوينه لكل المشاهد والأحداث التي تتسم بها البيئة على نهر المسيسيبى ، عندما كان يعمل رباناً على أحد القوارب النهرية البخارية فوق نهر المسيسيبى العظيم ، فهي بيئة تزخر بالصور الواقعية والأماكن الطبيعية ، حفظتها له ذاكرته ودونها عقله لتصبح فيما بعد قيمة تاريخية اجتماعية نلجأ إليها عند اللزوم . ويقول و. أ . نلسن : " الكاتب الواقعي هو الذي يجعل الواقع نصب عينيه دائماً ، ولا يجد بأساً في تجسيم ما يبدو له من ذلك الواقع وفي شرحه وتفسيره وتحليله والتعليق عليه واستخلاص ما يمكن استخلاصه منه كما كان يفعل هنريك إبسن ، أما الكاتب الطبيعي فيقتصر على تصوير الحقيقة المجردة ، وكشف بواطنها دون أن يجد في ذلك وازعاً من الخجل أو التقاليد "[2] وبالرغم من أن مارك توين يندرج تحت مسمى الكتاب الأمريكيين الواقعيين ، إلا أننا نجد تداخلاً بين المذهب الواقعي والمذهب الطبيعي في كتابته لروايته " هاكلبري فن " حيث اقتصر دوره على تصوير أدق التفاصيل ولكنه لم يعبر عما تعتمله تلك النفوس من خواطر ودوافع ، أي

[1]. روائع الأدب الأمريكي - تحرير نبيل شريف وآخرون – مركز الكتب الأردني – الأردن – 1995 ص 425
[2]. الأدب ومذاهبه – محمد مفيد الشوباشي – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – 1970 ص 131

لم يحاول أن يسبر أغوار تلك النفوس ، ويغوص داخلها ، بل كان مسطحاً إلى حدٍ بعيد ، فلا نستطيع أن نجزم بأن هذا عملاً واقعياً صرفاً ، أو أدباً طبيعياً خالصاً ، بل هو في النهاية يعتبر أدباً صبيانياً – إن جاز التعبير وصدق الحدس – ومثالنا على ذلك " ظاهرة الثأر " الواقعة بين (عائلتي جرنجر فورد و شيبر دسون) القرويتين الأرستقراطيتين ، تلك الآفة الاجتماعية ، يظهرها لنا (توين) فيصور تربصهم ومطاردتهم ، بل وذبحهم لبعضهم البعض دون الخوض في أسبابها ، أو تحليلها ، أو حتى معالجتها .

علاقة الراوي بنهر المسيسيبي :

" هرعت إلى شاطئ النهر ، ومضيت أصغى إلى الأمواج وهى تصطدم ببعضها البعض "[1] [هاكلبري فن]

وهى عبارة بالغة الصدق في التعبير عن ارتباط الراوي بنهر المسيسيبي ، وهى في حقيقة الأمر تعكس الصلة الشديدة الوثوق بين المؤلف ذاته وهذا النهر العظيم ، وتظهر مدى العلاقة الوشيجة التي تجمعهما ، وقوة صداها في نفسه ، فهذا النهر بالنسبة له يعنى وجود طبيعي ، ويمثل في نفسه عالم مكتشف ، ويصور في عقله حياة تموج بالأضداد والتناقضات التي تزخر بها كل من الطبيعة البرية والنماذج البشرية من : هدوء وصخب ، عذوبة وقسوة ، عزوف وفضول ، استلاب وعطاء ،تخاذل وتجاسر ، صدق وكذب تسامح وانتقام ، طمأنينة وخوف ، ثراء فاحش وفقر مدقع .. يقول " مارك توين " عن علاقته بهذا المجرى المائي الخالد : " إنه كل الوجود والرمز الهام للرحلة الإنسانية "[2] ويجسد هذا في شخص الراوي " هاكلبري فن " ، والتي تدور مغامراته حول نهر المسيسيبي ، وعبره ، وفوقه ، وداخله وعلى جانبيه ، يمر بناظريه على ما يكتنفه من مظاهر طبيعية خلابة ، متعددة الصنوف ومختلفة الأشكال من : جبال وأودية ، خلجان وبحيرات ، جزر ومستنقعات ، روافد وفروع ، كهوف وتلال غابات وحشائش ، أشجار وأعشاب ، صخور ورمال ، ممرات ومنحنيات .. ويرصد حالات النهر ذاته وهيئته وما يتسم به

---

[1]. رواية " هاكلبري فن " ترجمة فريد عبد الرحمن – ماهر سليم – سلسلة الآلف كتاب – مصر – مطبوعات مكتبة مصر – إهداء لمكتبة الإسكندرية – مشروع القراءة الكبرى – ص 63

[2]. موجز تاريخ الأدب الأمريكي – بيتر هاى – ت هيثم على حجازي – منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشق – 1990 ص 210

من : عمق وضحالة ، فيضان وانحسار ، استقامة وانحراف ، انسيابية واضطراب ، التحام وانفصال .. ونذكر هنا الأشجار الطبيعية التي تنتصب فوق ضفتيه مثل : أشجار الصفصاف ، والتوت ، والقنب ، والدردار ، والسرو ، والصنوبر ، وثمار العنب ، والكريز ، ونبات السمار . وكذلك ما يغلفه كل من الطقس والأجواء المناخية وتحل عليه من : شمس مشرقة وقمر متلألئ ، صيف قائظ وشتاء قارس ، سحاب كثيف وسماء صافية ، وضوح نهار وعتمة ليل ، صحو وغيم ، حفيف رياح وانهمار مطر ، وميض برق وهزيم رعد ، هواء لافح ونسائم لطيفة باردة .

ونتعرف على كائناته المائية ومخلوقاته التي تعيش في كنفه أو التي تحلق فوقه مثل : الأسماك الكبيرة ، والضفادع ، والسلاحف البحرية ، والطحالب ، والثعابين المائية ، والأفاعي ذات الأجراس ، والسناجب ، والخنازير والأرانب البرية ، والجرذان ، والدجاج المائي ، والبط البرى ، وطائر أبو زريق .

وكذلك يستعرض لنا وسائل المواصلات التي تسبح فوق عبابه وملحقاتها مثل : البواخر التجارية الضخمة ، والناقلات البحرية ذات المدافع ، والعائمات الصغيرة ذات الأكواخ الهندية ، والمعديات ، والزوارق البخارية ، والقوارب الخشبية ذات المجاديف .

ولا ننسى الولايات التي تعبر مياهه فيها مثل : إلينوي ، ميسوري ، كنتاكي ، إنديانا ، أوهايو ، أركانساس .

وأيضاً المدن التي مر عليها مثل : سانت لويس ، وكايرو ، وسانت بيترسبورج ، وسينسيناتى .

والقرى التي تطل عليه مثل : هوكرفيل ، وجوشن ، ولويسفيل ، وبايكسفيل .

والمقاطعات مثل : مقاطعة بايك .

والمزارع مثل : مزرعة أوركانسو ، فيلبس ، نيكولاس .

وأشكال المنازل التي تستوطن على جانبيه مثل : المنازل ذات الطابقين ، والمنازل العائمة ، والأكواخ ، والمزارع والحقول ومنتجاتها الزراعية مثل القطن والبطيخ والبطاطس .

ومظاهر البيئة المصنوعة مثل : السراديب ، الطواحين ، مخازن الخشب ، المطابع ، مكاتب البريد ، البدروم .

ويذكر لنا بعض أسماء البواخر التي التقطتها عيناه مثل : سوزان باول ، سينسيناتى ، لالى روك ، والتر سكوت .

ويذكر لنا نهر أوهايو ، ونهر هوايت ، وبعض الخلجان ، وجزيرة " جاكسون " التي يعرفها المؤلف تمام المعرفة .

ونأتي إلى النماذج البشرية التي عرضها وأتقن تصويرها ونحصرها في :

هذا 1) الذي لا يرضى إلا أن يعيش في عالم المغامرات والإثارة والميل إلى الطرائف والخدع والجنوح إلى تنفيذ خطط وهميـــة يستقيها من قراءاته لكتب المغامرات والشحذ دائماً إلى إيجاد موقف فروسي نبيل والبحث الدائب عن مغامرة يخرج في نهايتها ليتوج بطلاً قومياً (توم سوير) . وذاك 2) الذي لا يستطيع الفكاك من أثر المعتقدات الخرافية وعالم الجن والسحر والشعوذة والاعتقاد في العفاريت ، وتفسير أحداث لا يحتملها فكره الضيق ، وتحويلها إلى عالم الغيبيات والتوهم (العبد الزنجي جيم) . وآخر 3) منهمك بمعاقرة الخمر واستمراء حياة همجية وحشية ينغمس في الشر ويعيث في الأرض فساداً (فن والد هاك) . وهؤلاء 4) الغارقون في بحر الكذب والخديعة وعالم الإدعاء والنصب والاحتيال (الملك والدوق) . وزمرة 5) المتسكعون الذين لا هم لهم غير الوقوف أمام الحوانيت وتعاطى الدخان . وهؤلاء 6) المتشدقون في تنصيب العدالة وإقامة الحد يتحولون على أفاقين . وهؤلاء 7) الذين يمعنون في التمسك بتقاليد محافظة ومعتقدات موروثة بالية ويتبعون نظاماً اجتماعيـــاً روتينيـــاً لدرجة المقت ويفرضونها على ذويهم من تأنق زائد في الملبس وتحفظ سقيم في السلوك وتكلف مقيت في الحديث (الأرملـــة دوجلاس والآنسة واطسون ووالدة باك جرانجر فورد) . وهؤلاء 8) الذين يتربصون بغيرهم ليقتصوا منهم في محاولة لقتلـــهم أخذاً بالثأر لا يعرفون التسامح والإصرار على التلطيخ بالعار وتدنيس الشرف (عائلتي جرانجر فورد وشيبرد سون) . وهؤلاء 9) الذين يتنافسون بل يكدون في البحث عن الهاربين مقابل المال ولا يصدهم وازع إنساني أو ضمير حي ، القروي" مســـتر لوفتاس و ميسيز لوفتاس وآخرون ".

الدروس المستفادة والعبر المستخلصة من هاكلبري فن :-

1) الكذب يؤدى إلى الهلاك ، والصدق يهدى إلى النجاة .

2) الحض على الفضيلة والبعد عن الرذيلة ، والأخذ بالمعروف والنهى عن المنكر .

3) مراعاة ومحافظة الآداب والتقاليد الجميلة وتوثيق العهود .

4) حفظ الود وكتمان السر ورد الجميل ونكران الذات .

5) عدم الجور على حقوق الغير واستباحة الحرام ، وعدم اغتنام الفرص أو غلبة المنفعة الخاصة على العامة .

6) تقدير الشخص واحترامه ينبع أولاً من احترامه لذاته والحكم على كفاءته وليس لمنصبه ومكانته في المجتمع .

7) الإعلاء من قيمة العلم ، والحث على نشر التعليم ، والحط من شأن الجهل والسحر والشعوذة والخرافات .

8) التحرر من العادات المتوارثة البالية والمفروضة على الإنسان فرضاً .

9) الحرص في التمسك بالتعاليم الدينية والروحانية والمثل العليا .

10) ملاحظة ورصد الطبيعة والطباع وتأملها ومحاولة تفسيرها والتعامل حيالها ، لاكتساب خيراتها ، وتجنب شرورها .

11) الأخذ بالأسباب والحيثيات والدوافع وتقديم المنطق حتى يقبلها العقل ، وترضاها النفس .

12) المواءمة بين ما نتعلمه وما نتعامل به ، أي تطبيق العلم بقصد المنفعة العامة .

13) نبذ العنف والكراهية والدعوة للتسامح والغفران .

14) التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وعدم التدخل في شئون الآخرين .

15) إرساء مبادئ الحرية في التعبير والمواطنة والمطالبة بالعدل والمساواة .

16) عدم استعباد الإنسان لأخيه الإنسان والتخلص نهائياً من التمييز العنصري .